

المأمون أبو شوشة
الشاعر .. و الأديب .. و الفنان



* ... و إنا لنندفع فى كل شيء ، حتى فى
أحلامنا .. فنحسب أننا نستطيع أن نسخر
الزمن لمشيئتنا ، و نظل نبني على هذا
ونشيد .. فإذا دا هم نور الفجر أمسياتنا ..
أفقنا على يقظة الروح الهائلة ، فليس ثمة
أحلام أو رؤى ، و يسخر الزمن منا ، و نحن
حيارى بين آمالنا و يأسنا .. *

المأمون أبو شوشة

* عبد الله المأمون عباس إسماعيل أبوشوشة : «المأمون أبوشوشة»

* عربى من قبيلة « خويلد » ..

* ولد فى (٢٣) من جمادى الآخرة عام ١٣٤٥هـ - الموافق ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٦م) ..

* حصل على الابتدائية من مدرسة الأورمان الابتدائية ..

* حصل على الثانوية من المدرسة «السعيدية» الثانوية ..

* بدأت علاقته بنجيب الريحاني عام (١٩٤٤) ، عندما كان والده يشغل منصب مدير إدارة الفنون الجميلة ، و ذهب إليه «الريحاني» ليطلب منه إعانة الوزارة لمسرحه ، و رآه «المأمون» فى مكتب أبيه ، فتحدث إليه حوالى ساعة ..

* بدأت علاقته بالإذاعة سنة (١٩٤٥) وهو صبى صغير ، كان يمثل و يغنى ويقلد أصوات الحيوانات أيضاً فى برامج الأطفال التى كان يقدمها - آنذاك - «بابا صادق» ..

* فى عام (١٩٥٣) : انضم إلى فرقة «ساعة لقلبك» للعمل معهم فى الحلقات ..

* تخرج فى كلية العلوم بجامعة القاهرة سنة (١٩٥٤) و حصل على «بكالوريوس العلوم فى الجيولوجيا» و متخصص فى دراسة الحفريات القفريّة ..

* التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية سنة (١٩٥٥) ..

* فى سنة (١٩٥٥) التحق بالعمل فى الإذاعة ، و سجل اسمه على أنه ممثل ..

* كانت له القدرة العجيبة فى التمثيل و الغناء ، و أيضاً فى تقليد الأصوات مثل «نجيب الريحاني» و «يوسف وهبى» ، وكذلك أصوات الطيور و الحيوانات

وغيرها..

- * حاز عدة ميداليات فى مباريات المسرح الجامعى منذ سنة (١٩٤٧) ..
- * حاز الميدالية الذهبية الأولى لجوائز الشعر و القصة منذ عام (١٩٥٠) ..
- * حاز على جائزة أحسن قصة فى مسابقة الصحافة الجامعية عام (١٩٥٥) ..
- * حاز على الميدالية الذهبية فى الرسم «الكاريكاتير» فى أسبوع شباب الجامعات ..

- * حاز على كأس الخطابة للجامعة ..
- * حصل على خمس ميداليات ذهبية للتمثيل فى دورى الجامعات سنة (١٩٥٧) ..

- * حصل على ميدالية الرسم الذهبية فى اليوبيل الفضى للجامعة ..
- * قدم للإذاعة العديد من البرامج .. منها :

- ١ - «صواريخ» ..
- ٢ - «لن ننسى» ..
- ٣ - «دنيا الحيوان» ..
- ٤ - «كلمة فى خبر» ..
- ٥ - «الأسبوع فى ساعة» ..
- ٦ - «العلم والحياة» ..
- ٧ - «صباح الخير» ..
- ٨ - «حول الأسرة البيضاء» ..
- ٩ - «رسائل بور سعيد» ..

١٠ - «لسنا وحدنا» ..

١١ - «قصة المعركة» ..

١٢ - «سندباد» ..

١٣ - «حديث المدينة» ..

١٤ - «مجلة الهواء» ..

١٥ - «قراءات دينية» ..

* كان أول مذيع يثير اهتمام المجمع اللغوى ، فأرسل إليه خطاباً يقول له فيه :
- « .. من أسلوبك فى التقديم ، ومن لغتك السليمة ، رأتى أن يشكرك
المجمع اللغوى على تقديرك للغة واللفظ العربى فى وقت يغرق فيه زملاؤك
فى الإسراف العامى .. » ...

* توفى فى الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة (١١ من ذى القعدة عام
١٣٨٢ هـ - الموافق ٥ من أبريل سنة ١٩٦٣ م) بالقاهرة ..

* من مؤلفاته :

١ - «الطير فى مؤتمر» صدر فى (٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤) فى
سلسلة «من الشرق والغرب» .. بالقاهرة ..

٢ - «دموع المهرج» .. صدر بالقاهرة عام (١٩٦٨) ..

٣ - «صلاة العبيد» : عن دار الكاتب العربى للطباعة و النشر ، صدر فى
عام ١٩٦٨ . بالقاهرة .

* * *

* من آثاره النثرية :

(حديث الببغاء)

امتلأت الحواصل ، و رفعت الموائد ، و خيمت فترة من سكون لم يقطعها إلا حركة مفاجئة من ببغاء دلفت إلى غصن ناتئ ، فقبضت عليه بكلا ليها ، وأخذها الزهو بشكلها الفريد .. فجعلت تقلب الطرف فى ريشها التضرير الذى دبجته يد الخالق الصانع آية من آيات الإعجاز والإبداع و صبغة من ألوان الطيف بكل ما يسكر الأبصار ، و يسحر البصائر :

– «صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً .. (١) ..»

و صاحت صيحة جافية :

ألا أيها الأطيوار و يحكم هبوا خذوا من حديثى ما به يخلب اللب يأيتها الطير .. لقد قلدكم ابن آدم – فأجاد فى تقليدكم .. و حاكاكم فأحسن حكاية صغيركم و تغريدكم .. و زحمكم ، بل غلبكم علي مملكة الجواء التى ظننتم أنها خالصة لكم .. و ليس فيكم من استطاع أن يباريه ، أو يجاريه فى عمل يأتيه أو كلمة تخرج من فيه ..

و إني لزعيم بأن أحمل عنكم عبء ما ثقل عليكم ، فأحدثكم بمثل لسانه و أسمعكم من منطقته و بيانه ..

لا ... بل سأتمثل الناس أمامكم ، و أشرح لهم أحزانكم و آلامكم .. فأكلهم كلاماً يفهمونه ، و أعانيهم عتاباً لا يسيغونه ، و أقول لهم يأيتها الناس ..

(١) سورة البقرة – آية ١٣٨ ..

إن الله الذى خلقكم فعدلكم ، وصوركم فأحسن صوركم ، وفضلكم علي كثير من خلق .. فضلكم بالعقل والحكمة ، وأوصاكم بالرفق والرحمة ، ونبهكم الى أنه

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ»^(١) ..
وَأَبَان لَكُمْ سبحانه عن فضل هذه المخلوقات التى سخرها لكم ، كما
«سخر لكم الشمس والقمر والنجوم» ..

فأراكم أن «الأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون»^(٢)
«وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس»^(٣) ..
وأنه يسقيكم «مما فى بطونه من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغاً
للشاربين»^(٤) ..

وأنه خلق لكم «الحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة»^(٥) ..
وأن النحل «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء
للناس»^(٦) ..

ولفتكم إلى قدرته إذا نظرتهم إلى «الطير مسخرات فى جو السماء ما
يمسكنهن إلا الله»^(٧) ..

وجعل منا هدهد «سليمان» : رفيقه ودليله على الماء وحاديه إلى ملك
بلقيس ، وحمّام الغار الذى ستر «محمداً» صلى الله عليه وسلم من عيون
الأعداء ..

-
- (١) سورة الأنعام - جزء من الآية : ٣٨ .. (٢) سورة النحل - آية : ٥ ...
(٣) سورة النحل - جزء من الآية : ٧ .. (٤) سورة النحل - جزء من الآية : ٦٦ ..
(٥) سورة النحل - جزء من الآية : ٨ .. (٦) سورة النحل - جزء من الآية : ٦٩ ..
(٧) سورة النحل - جزء من الآية : ٧٩ ..

وما الطير الأربعة التى أرى بها خليله إبراهيم كيف يحيى الموتى إذ قال :
« فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً
ثم ادعهن يأتينك سعيًا ... » (١) ..

كما جعل منا معجزة « عيسى » فى أن يخلق من الطين على هيئة الطير ثم
ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ..

وقد كرمنا الله سبحانه وتعالى فى أكثر من مكان فى كتابه المكنون ،
فقولوا لى بربكم يأيها الناس ماذا غركم بربكم الكريم ، وفيهم فسقتم عن أمره ،
وبأى مشيئة وبأى جريرة تجرون علينا الأذى ، ونحن ندفع عنكم وعن زرعكم
ألواناً من الأذى ، فنأكل البعوض والحشرات والديدان التى تؤذى وتلف
أقواتكم ..

ومن عجيب أمركم .. أنكم تخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فتتشقون
ضروباً من الطيور الغريدة ، ومن ذوات المناظر الجميلة .. فتسلبونها حريتها ..
وتحبسونها فى أقفاص قد نمقتموها . وما أردتم بهذه السجون الثمينة إسعاد الطير
الحبيسة ، وأنتم تعلمون فى قرارة نفوسكم أن الأسر مُرٌّ ، ولو كان فى جنة الخلد ،
وأن الحرية التى تبذل فى سبيلها الأرواح ، وترخص فى الحصول عليها الدماء لا
تغنى عنها أطواق الذهب ، ولا أقفاص الفضة ..

ولكن الذى أردتموه إشباع شهواتكم ، وإرضاء نزواتكم ، والتنافس فى
حب الظهور ، والمباهاة على حساب غيركم ..

ولست أدري بأى مذهب تستحلون خنق هذه المخلوقات الضعيفة وأنتم
ترون حراماً على أى قوم - بالغة ما بلغت قوتهم وضعفكم - أن يسلبوكم قتيلاً
من حرياتكم ..

(١) سورة البقرة - جزء من الآية : ٢٦٠

و لكن لا عتب عليكم .. فهذا شيء في دمائكم و طباعكم ..
ألم تكونوا تقيدون النساء في الدور ، و تكشفون عليهن الحجب والستور ،
و تقفلون عليهن في الخدور لا شيء إلا لغيرتكم ، و حرصكم عليهن ،
واسئثاركم و شغفكم بهن ..

و أرجح الظن أن الآبقة لا تعيها القيود ، والمارقة لا تحصنها الستور ..
ألا شيئاً من الإنصاف يا معشر الإنس إن كنتم ترجون الله و اليوم الآخر ..
و تخشون أن تتاح الفرصة لقوى من عدوكم ، فيعاملكم بمثل معاملتكم ..
يا معشر الإنس .. لئن كانت هذه سبيلكم في معاملة الصغار الضعاف
اعتزازاً بقدرتكم .. فما بالناس تراكم تتملقون الجوارح و الكواسر و السباع
فتستعينون بها ، و تتسمون بأسمائها ؟ ..

أوليس منكم «صقر» و «شاهين» و «باز» و «ذو الإصبع» و «أبو مالك»
(النسر) و «أبو الحجاج» و «أم الهيثم» (العقاب) و «أم قيس» (الرخمة) .. ؟
و منكم «أسامة» و «ضرغام» و «نمر» و «سرحان» و «أبو عامر» و «أم
نوفل» (الضبع) .. ؟

و منكم «حوت» و «عنتر» .. إلى غير ذلك من نعوت البأس و الضخامة
والدهاء .. ؟

يا معشر الإنس .. مالي أراكم تحصون على الخلائق أشياء قدرتموها
سوءات و عيوباً ، ولا تذكرون ما سجله لها الواقع من المحامد ألواناً و ضروباً ..
ألا تذكرون الهدهد الجميل الوفي الأمين صديق «سليمان» النبي
الكريم ؟. ألا يروى عنه أنه خرج مع «سليمان» عليه السلام بعد فراغه من بناء
«بيت المقدس» إلى أرض الحرم ، فلما قضى نسكه . خرج من مكة مصباحاً إلى

«اليمن» .. فوافني «صنعاء» عند الزوال .. فرأى أرضاً نضيرة زاهية الخضرة ..
قلبت فيها ليصلى ويتغذى ..

فلما رأى «الهدهد» وكان اسمه «بغفور» أن «سليمان» شغل عنه، حلت
في الجو ، فلمح بستاناً «بلقيس» استهوته خضرته .. فوقع فيه ، فرأى هدهد
اليمن ، فسأله اليمني : من أين أقبل ؟

فقال : من الشام مع صاحبي «سليمان بن داود» عليه السلام .

فسأله : و من يكون صاحبه «سليمان» ؟

فقال : إنه ملك الإنس والجن والطير والوحش والريح ، و وصف له
عظمة ملكه وما سخر الله له من كل شيء ..

ثم سأله «بغفور» بدوره : و من أين أنت ؟

فقال : من هذه البلاد .. و وصف له مُلْك «بلقيس» ، وعظم أمرها ،
و قوة جيشها الذي يربو على ألف ألف مقاتل . ودعاه أن ينطلق معه ليريه هذا
الملك ..

فقال «بغفور» : إنني أخاف أن يفتقدني «سليمان» وقت الصلاة إذا احتاج
إلى الماء ..

فقال «هدهد اليمن» : إن صاحبك يسرُّه أن تأتيه بخبر هذه الملكة ..
فمضى معه و لم يرجع لسليمان إلا بعد العصر .. وكان «سليمان» قد نزل
على غير ماء ، فتفقد «الهدهد» فلم يجد علمه عند أحد ، فغضب وقال :
« لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان ميين ^(١) » .

ودعا بالعقاب - وهو سيد الطير - وقال : على بالهدهد هذه الساعة ..

(١) سورة النمل - آية ٢١ ..

فارتفع فى السماء .. فإذا هو بالهدهد مُقبلاً من جهة اليمن .. فانقض عليه ، وقال له : ويلك .. ثكلتك أمك .. إن « نبي الله » قد حلف ليذبحنك .. فقال : أو ما استثنى ؟

قال : بلى .. (أو ليأتينى بسلطان مبين) ..

قال الهدهد : قد نجوت إذن ! ..

ثم طار مع العقاب حتى أتيا « سليمان » عليه السلام .. فأرعى الهدهد ذنبه وجناحيه تواضعاً وانكساراً ..

فأخذ سليمان برأسه ، فمده الهدهد إليه ، وقال : يانبي الله .. أذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل ..

فارتعد سليمان ، وعفا عنه .. ثم سأله عن غيبته ، فخبّره خبر « بلقيس » ، ووصف له عرشها وملكها على ما رأى ، وحَبَّبَ إليه أن يضم مُلكها إلى مُلكه ..

والى هنا .. تكون قد انتهت مهمة الهدهد فى حدود طاقته ، وأتم « سليمان » وجنوده نقل عرش ملكة « سبأ » ودعوتها إلى الإيمان ..

وقيل : تزوجها ، وأقرها على ملكها ، وأمر الجن فبنوا لها فى أرض اليمن ثلاثة حصون لم تقع عين على مثلها ، وهى « سبلجين » و « بينون » و « غمدان » ..

وكانت « بلقيس » وهى ابنة جنية على جانب عظيم من حصافة الرأى ، وجمال الخلقة ، لا يشوب حسننها إلا كثرة شعر ساقها ..

فلما تزوجها « سليمان » .. أُشير عليه بأن يتخذ لها النورة والحمام لإزالة الشعر ، ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .. وقد أنجب منها « سليمان » ولداً أسماه

« داود » .. لكنه مات فى حياة أبيه ..

وكان « الهدهد » يعرف مكانه من نفس « سليمان » .. فذهب إليه يوماً ،
وقال : يا نبي الله .. أريد أن تكون فى ضيافتى ..

فقال : أنا وحدى ؟

قال : بل أنت وعسكرك فى جزيرة كذا فى يوم كذا ..

فلبى « سليمان » عليه السلام الدعوة ، وذهب بجنوده إلى تلك الجزيرة ..
فطار الهدهد ، فاصطاد جرادة ، وخنقها .. ثم رمى بها فى البحر ، وقال :
كلوا .. يا نبي الله ، من فاته اللحم ، لم يفته المرق ..

فضحك « سليمان » وجنوده ضحكاً كثيراً ، وقال قائل يصف ذلك :

جاءت سليمان يوم العرض هدهدة

أهدت له من جراد كان فى فيها

وأنشدت بلسان الحال قائلة :

إن الهدايا على مقدار مهديها

لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته

لكان يهدى لك الدنيا وما فيها

ذلك « الهدهد » رضى عنه « الأنبياء » وغضبتهم عليه ، وأحسن إليكم
وأسأتم إليه ، وحرمت بعض الشائع قتله ، فأحللتموه جرياً وراء عقائد فاسدة
اعتقدتموها ، وأوهام وترهات صدقتموها ..

فكم فقأتم له عيناً ، علقتموها على النساء كيما يلدن ذكراً ..

و حملها صاحب الحاجة عند السلطان ، كيما تنقضى ..

وبخرتم بعُرفه المجنون ، ليرتد إليه عقله ..

وعلقتهم أمعاءه على من ينزف الدم ، ليسكن نزفه ..
وكم أخذ عاشق من رأسه و منقاره ولسانه تمائم حب لمحبوته ، كى ينال
مأربه منها ..

وكم اتخذتم الهداهد مذبوحة فى بيوتكم ، لتدفعوا الحسد والسحر عنها ..
ثم تعالوا أسألکم عن القطا الرشيقة الأنيقة التى يتغنى الشعراء برقتها
وجمال مشيتها فيقول قائلهم :

ولقد دخلت على الفتا ةأخدر فى اليوم المطير
والكاعب الحسناء تر فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهما فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
ولتمتهما فتنفست كتففس الظبى البهیر
وأحبهما وتجنبنى ويحب ناقتها بغيرى
ويتشبه بها الغوانى الخفرات فيقلن : نحن بنات طارق .. نمشى على
النمارق .. مشى القطا النواتق ..

وهى عندكم مضرب المثل فى حدة البصر ، وفى صدق الخبر ، وفى
الاهتداء إلى الأثر ، وفى الحرص والحذر ..

وللناس فى ذلك أحاديث وروايات وأقاصيص وحكايات .. فمن ذلك أنه
كان بين «ابن القطا» الشاعر الشهير بالبغدادى ، وبين «الحيص بيص» الشاعر
التميمي مناظرات .. فحضرا يوماً على سماط الوزير .. فأخذ ابن القطا قطاة
مشوية ، وقدمها إلى الحيص بيص فقال هذا للوزير : يا مولاي .. إن هذا
الرجل يؤذيني ..

قال : كيف ؟ ..

قال :إنه يشير إلى قول الشاعر :

تميم بطرق اللؤم أهدي من القطا
وان سلكت سبل المكارم ضلت
أرى الليل يجلسه النهار ولا أرى
خلال الخازي عن تميم تجلت
ولو أن برغوئاً على ظهر قملة
يكر على صفى تميم لولت

فضحك الوزير وترضاه ..

وكان ابن القطا فكهاً ظريفاً .. فمن فكاهاته :أنه جلس يوماً مع امرأته إلى
طعام يأكلانه ، فقال لها : اكشفي عن رأسك ..
ففعلت .. فقرأ سورة « الإخلاص » ..
فقالت :ما الخبر ؟.

فقال :إذا كشفت المرأة عن رأسها لم تحضر « الملائكة » .. وإذا قرئت
سورة « الإخلاص » هربت الشياطين .. وأنا أكره الرحمة علي المائدة .
ومنها أن « عمرو بن أمامة » نزل مع رجاله إلي جوار قوم « بنى مراد »
فطرقوه ليلاً .. فأثاروا « القطا » من أماكنها ..

فرأتها امرأة يقال لها « حذام » .. فنبهتهم ، وقالت :

« ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لنا ما

فلم يأبهوا لقولها ، وأخلدوا إلي مضاجعهم .. فقام فيهم رجل يقول :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

ففر القوم ، وارتحلوا .. واعتصموا بوادٍ قريب منهم ، حتي أصبحوا ،

وامتنعوا من عدوهم ..

وكم شكا منكم للقطا شاكٍ ، وبكى باكٍ ، واستنجد لها مستنجد ، ألم
تسمعوا إلى قول شاعركم :

بَكَتْ إِلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرْنَ بِى

وَقُلْتُ وَمِثْلَى بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ:

أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ

لَعَلَى إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ

فما بال هذه « القطا » التي ظفرت بإعجابكم لا تظفر بشئ من
إشفاقكم، فتراكم تحرقون عظامها ، وتعجنونها بالزيت ، ويظلي بعجينها رأس
الأقارع لينبت شعره ..

وإذا شاء أحدكم استمالة محبوب ، لم تكفه قطاة واحدة ، فليشق بطن
قطاتين ذكر وأنثى ، ويطحنهما ، ويأخذ دسمهما .. ثم يحتال علي أن يدهن به
من أحب علي غفلة منه ، فيوقظ في قلبه الحب له ، والهيام به ..

لعمر الحق ما رأيت جزاء كجزائكم ، ولا كنوداً مثل كنودكم ، وما أرى
هذا غريباً عليكم ، فأنتم تكفرون بربكم الذي لا تحصون نعمةً عليكم ..

وكم من صاحب فضل أسدي إليكم معروفاً ، فتكرتم له ، ونصبتم
الشباك للإيقاع به علي حين أنكم تتحامون جانب الأشرار ، وتخشون بأسهم ،
وتذلون نفوسكم ، وتحنون رءوسكم إجلالاً لهم ..

كَعَنَزِ السَّوِّءِ تَنْطَحُ مَنْ خَلَاهَا

وَتَرَأْمُ مَنْ يُحِدُّ لَهَا الشَّفَارَا

وهذه أم العلعل « القبرة » الضعيفة اللطيفة الأنيسة الأليفة التي تستأمنكم ،

وتتحبب إليكم ، وتضع وكرها على الجادة ، لا تخشى صيحة صائح ،
ولا تقلقها زجرة زاجر .. وهى حريصة على ألا تقع في فخ صائد ، ولهذا
حملكم الحقد على دوام مطاردتها ..

وروى أن « طرفة بن العبد » خرج فى طفولته - وهو ابن سبع - مع عمه
فى سفر .. فنزلوا على ماء .. فذهب « طرفة » بفخ له ، فنصبه « للقبر » ،
وبقى عامة يومه لم يصد شيئاً .. فرفع الفخ وعاد إلى عمه .. ثم حملوا ، وارتحلوا
.. فرأى « القبر » تلتقط ما نثر لها من الحب فقال :

يا لك من قبرة بمعمر خلالك الجو فبيضى واصفرى
قد رفع الفخ فلا تحذرى ونقرى ما شئت أن تنقرى
قد ذهب الصيدُ عنك أبشرى لا بد يوماً أن تُصادى فاصبرى
وروى عن « داود بن أبى هند » : أن رجلاً صاد « قبرة » فقالت : ما تريد
أن تصنع بى ؟

قال : أذهبك ، وآكلك ..

قالت : والله أنى لا أسمن ولا أغنى من جوع ، ولكنى أعلمك ثلاث
خصال هى خير لك من أكلى .. أما الأولى فأعلمك إياها وأنا على يدك ..
والثانية إذا صرت على الشجرة .. والثالثة إذا صرت على الجبال ..
فقال : نعم ..

فقالت ، وهى على يده : لا تأسفن على ما فاتك ..

فخلّى عنها ..

فلما صارت على الشجرة قالت : لا تصدقن بما لا يكون ..

ولما صارت على الجبل قالت : يا شقى لو ذبحتنى لوجدت فى حوصلى

دُرَّةٌ وزنها عشرون مثقالاً ..

فعض على شفته ، وتلهف ، ثم قال : هات الثالثة ..
قالت : قد نسيت الثنتين الأوليين ، فكيف أعلمك الثالثة ..

قال : وكيف ؟

قالت : ألم أقل لك « لا تأسفن على ما فاتك » ؟ .. وقد أسفتَ على ،
وقلت « لا تصدقن بما لا يكون » وقد صدقت .. ولو جمعت عظامي وريشي
ولحمي ما وزنت عشرين مثقالاً .. فكيف يكون في حوِصَلتي درة تزن عشرين
مثقالاً ؟ ..

فهل بمثل هذا اتعظتم وما أنتم ممن تفيد فيه العظات ، ولا تغني النذر ؟
ثم خبروني ما ذنب « ابن داية » عندكم ؟ نَعْتُمُوهُ بِأَقْبَحِ النُّعُوتِ وَكُنَيْتُمُوهُ
أَسْوَأَ الْكُنَى .. فهو غراب البين ، وأبو الشؤم ، وأنبيأؤكم يقولون (لا طيرة
ولا فأل) وأنتم تتطيطرون به ، فإذا وقع على ربوعكم وما يقع عليها عامرة بل
غامرة ، حملتموه جريرة خرابها ، وإذا نعق عند دار كان عندكم نذيراً بشتات
أهلها ، ولا يصيبكم شيء إلا ما يجره أبو حذر ، ولا يتفرق أحباب إلا بنحس
الغراب ، وما رأي أحد غراباً ، وهو يحدو أو يقود قاطرة تقل نازحاً إلى بلد
غريب ، أو تفرق بين حبيب وحبيب ، إلا وأنحى باللائمة عليه .

الناس يلحون غرا	بَ الْبَيْنِ لِمَا جَهِلُوا
فما على ظهر غرا	بَ الْبَيْنِ تَطْوِي الرِّحْلَ
ولا إذا صاح غرا	بُ فِي الدِّيمَارِ ارْتَحَلُوا
وما غراب البين إلا	نَاقَةَ أَوْ جَمَل

والغرابين مساكين .. تلتقط ما نبذتم ، وتبلغ بما لفظتم ، وتريحكم من الحشرات والهوام ، ولا تؤذيكم فى شراب ولا طعام ، ولكنها عقيدة آمنتم بها ، وتمسكنم بأهدابها ، وكلفتموه علم الغيب فيقول شاعر:

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ
لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به إن كان تفريقُ الأحبةِ فى غدٍ
ويقول غيره :

ألا يا غرابَ البينِ ويحك نبئى بعلمك فى ليلَى وأنت خيرُ
ولكن أنى لقلوبكم الغُلفُ أن تؤمن بأن الله هو عالم غيب السموات والأرض . « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ^(١) » ..

هلا قلت كما يقول ابن عباس إذا نعى الغراب : « اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك » ..

وكم للغراب من يد جحدتموها ، وحسنة أنكرتموها ..

أولم يروا أن رسول الله « محمداً » ﷺ دعا يوماً بخفيه ليلبسهما ، فلبس واحداً .. ثم جاء غراب فاحتمل الآخر ورمى به ، فخرجت منه حية .. فنصح لقومه : « بألا يلبس أحد خفيه حتى ينفضهما » ؟ ..

وهل لم يأتكم نبأ ابنى آدم « قابيل » و « هابيل » حين قربا لله قرباناً ، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من الآخر .. فنفس عليه ، فقتله ، ولم يدْرِ كيف يصنع به ، وما كان القتل معهوداً من قبل ، فبعث الله غرابين يقتتلان ، فقتل أحدهما الآخر .. ثم بحث فى الأرض بمنقاره ، ودفنه .. فتعلم منه قابيل ، واقتدى به فى دفن أخيه ..

(١) سورة البقرة - جزء من الآية ٢٥٥ ..

ومن ذا الذى يقنعكم بأن الغراب قد يكون دليل خير وأنتم تقولون :
إذا كان الغراب دليل قوم أطاف بهم على جيف الكلاب
ومن عجيب نوادركم مع الأغربة ما يروى عن «أمية بن أبى الصلت» : أنه
كان يوماً فى مجلس شراب ، فجاء غراب فنعب نعبة .. فقال : أتدرون ما يقول
هذا الغراب ، زعم أنى أشرب هذه الكأس فأموت . وأمارة ذلك أنه يذهب إلى
هذه الكومة ، فيبتلع عظمة ، فيموت ..
فذهب الغراب إلى الكومة ، فابتلع العظم فمات ، وشرب أمية «على إثره
الكأس .. فمات ..

ويحكى « أبو الفرج المعافى بن زكريا » قال : كنا نجلس فى حضرة
«القاضى ابن الحسن» فجئنا على العادة ، فجلسنا عند بابيه ، وكان بالباب
أعرابى صاحب حاجة ، فوقع غراب على نخلة فى الدار ، فصرخ ثم طار .. فقال
الأعرابى :

- إن هذا الغراب يقول « إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام»
فزجرناه ..

فقام وانصرف .. ثم أذن لنا فى الدخول على القاضى .. فدخلنا ، فرأيناه
ممتنعاً مغتماً .. فسألناه : ما الخبر؟

فقال : رأيت البارحة فى نومى شخصاً يقول :
منازل آل عباد بن زيد على أهليك والنعم السلام
وقد ضاق صدرى لذلك ، فدعونا له وانصرفنا ..

فلما كان اليوم السابع دفن القاضى كما خبر الأعرابى ..
فبالله عليكم ما أعجبها من غرب قد رفعت عنها الحجب ..

يا معشر الإنس .. أليس من مفارقاتكم أنكم تكرهون الغراب ، وتطيرون به ،
وتتخذون من قلبه ورأسه مع النبيذ شراباً يجرى المحبة للساقى فى دماء شاربه ..
ومن منقاره .. تميمة ، تقى حاملها أعين حاسديه ..
ومن كبده .. كُحلاً يجلو غشاوة البصر ..
ومن مسحوق بيضه .. بلسماً يقطع البواسير .. ألا إن هذا لا يرضى العدالة
فى قليل أو كثير .

وإنى لا أراكم تغالون فى التحوط من السحرة والنفاثين ، والتحفظ من
الحساد والعائتين ..

وتحملون غيركم أعباء ما اجتרכתهم ، والله يعلم وأنتم تعملون أن (منكم
بليّتكم وفيكم برؤها) والسحر أنتم جناته ، وعليكم تبعاته ..

أفلم يكن منكم هاروت وماروت أستاذًا السحر ، ومنهما تعلم الناس ما
يفرقون به النفوس ، ويخربون البيوت ، ويكيد بعضهم لبعض عاديّن عامدين ..
والحسد : داء فى نفوسكم .. ينفصل من عيونكم إلى بدن المعيون عفواً ،
أو عمدأ .. فيكون ذلك ناقصاً لقواه ، وقد يكون فاصلاً بينه وبين الحياة ..

ولقد خبرتم علماءكم فى كشف سر الحسد ، وقوة تلك الأعين التى
تصيب أهدافها من غير تماس ولا تصادم ولا وساطة ولا عامل ..

وعللها معللون بأنها قوة تأثير روحى من العائن على المعيون ..

وقال غيرهم : إنها تيار كهربى يتسلط من الأول على الآخر فيصعقه ،
ولكن يعرض لهم حسد العميان ، والحسد من وراء الحواجز والجدران ، وتشابه
أثر العين وفعلها فى الجماد والحيوان ، وكيف تخترق الأستار ، وتفتت الأحجار ..
فيشكل عليهم الأمر ..

وسواء أوضحت تعاليلهم أم أخطأت .. فالعلة مردها إليكم ، ووزرها واقع عليكم ، ولا ذنب فيها للطير التي تتخذون من أشلائها التعاويذ والتمائم .. وتبخرون بدخانها الأحجبة والطلاسم ..

ولو أنكم غسلتم أيديكم من تلك الأوضاع ، وطهرتم نفوسكم من هذه الأوزار لسلّمتم وسلّم غيركم من الحاسد والحسد ، ومن النفّاثات في العقْد . وفي الحق أن ما يروى عنكم في هذا الباب يذهل العقول ويحير الألباب .. فقد روى الجاحظ عن الأصمعي قال :

– « كان عندنا رجلان يعينان الناس .. فمر أحدهما بحوض من حجارة ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم قط ... ففصل الحوض فرقتين ، فأخذ أهله ، فضبّوه بالحديد .. فمر عليه ثانية فقال : وأبيك لقلما أضرت أهلك فيك .. فتطاير أربع فرق » ..

وأما الآخر فإنه سمع صوت بول وراء حائط ، فقال : إنه لين الشخب .. فقالوا له : إنه فلان ابنك ..

قال : وانقطاع ظهراه !!

قالوا : إنه لا بأس عليك ..

فقال : لا يبول والله بعدها أبداً ..

فقال : فما بال حتى مات ..

* * *

وروى أن أعرابياً كان يقود إبلاً له ، فمر على قوم وكان فيهم رجل عيون .. فقال : ألا أطمعكم من هذه الإبل ..

قالوا : بلى ..

فشرع طرفه نحو بغير منها ، فسقط ، يتشحط ..

فالتفت إليهم الأعرابي وقال : تالله لأردنّها عليكم ، ولن تنالوا من إبلى

بغيتكم ..

ثم قرأ على البعير : بسم الله الرحمن الرحيم . باسم الله لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . باسم الله « قل أعوب برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد » ^(١) اللهم رب مطر حابس .. وليل دامس .. وشهاب قابس .. ورطب ويابس .. رد عين العائن عليه فى نفسه وأهله وأحب شيء إليه .. قيل : فنشط البعير كأن لم يكن به شيء ، وخرجت عين العائن من فورها ..

وما نرى لنا ولكم من خلاص إلا أن تتداركنا رحمة الله ، وهو أرحم

الراحمين ..

* * *

ثم أنبئوني بعلم عن «البومة» وهى عندكم مذبذومة مشئومة .. ما الذى تنقمون منها ؟ .. وبأى ذنب كنيتموها «أم الخراب» وما تعلمون عليها من سوء إلا أنها تنقى دوركم من الحشرات والهوام ، وتدفع عنكم غائلة الفيران التى تلتهم الرطب واليابس ، وتقرض ما تقع عليه من أثاث وأوراق ، وملابس وتلوث الأطعمة والأشربة ، وتعيث فى المخازن والأصونة متلفة مخربة ، وتنقل إليكم الأوبئة والطواعين ، وهى لكم ولأولادكم عدو مبين !؟

(١) سورة الفلق ..

ولو لم يكن للبوم إلا هذا لكفى شفيعاً فى أن تكون فى عيونكم «أم العمار» لا «أم الخراب» ولتيمنتم ولم تتطيروا .. ولكنكم (سامحكم الله) تقبلون الأوضاع ، وتقابلون بالسيئة الحسنة ، وما فتئتم ترون البوم رمزاً للشئوم ، وللتدمير معولاً ..

ألم تروا أن «ال خليفة المأمون» وهو من أحكم الخلفاء وأعقلهم وأعلمهم ، كان يشرف يوماً من قصره ، فرأى رجلاً قائماً ويده فحمة يكتب بها على حائط القصر ..

فأرسل من خدمه من ينظر فيما يكتب ويأتيه به ، فرأى الخادم ما كتب الرجل فإذا به :

يا قصر جمع فيك الشؤم واللؤم متى تعشش فى أركانك البوم؟

يوم تعشش فيك البوم من فرحى أكون أول من ينعيك مرغوم

فقبض عليه الخادم ، وقال : أجب أمير المؤمنين ..

فتوسل إليه الرجل أن يخلى عنه ..

فقال : ذلك أمر ما إليه سبيل ..

وساقه إلى الأمير ، وأنبأه بما كتب ..

فقال المأمون : ويلك ما حملك على هذا ؟

فقال : يا أمير المؤمنين .. إنه لن يخفى عليك ما فى قصرك هنا من خزائن الأموال والخلى والخلل والطعام والشراب والفراش والآنية والمتاع والجواري والخدم - وما عداها مما يقصر عنه وصفى ، ويعجز عنه فهمى ، وإنى يا أمير المؤمنين قد مررت الآن عليه وبى من آلام الجوع وشدة الفاقة ما لا يطيقه أحد ، فوقفت حياله مفكراً ، وقلت فى نفسى إن هذا القصر

عامر شامخ ، وأنا جائع ، ولا فائدة لى فيه .. فلو كان خراباً لما عدمت منه
رُخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه ، وأتقوت بثمانه ، أو ما علم أمير المؤمنين
قول الشاعر :

قال المأمون : وما ذا قال ؟

قال :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ نصيبٌ ولا حظٌ تمنى زوالها
وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها
فقال المأمون : أعطه يا غلام ألف درهم .. ثم قال : هى لك فى كل سنة

مادام قصرنا عامراً بأهله ..

وأن « كسرى » عاهل الفُرس طلب يوماً إلى عامل له أن يصيد له شر الطير ،
ويشويه بشر الوقود ، ويطعمه شر الناس .. فصاد بومة .. وشواها بحطب الدقلى ،
وأطعمها ساعياً (نمّاماً) ..

وحكى أن « عبد الملك بن مروان » أرق ليلة ، فاستدعى سميراً يحدثه ،
فكان فيما حدثه به : إنه كان بالموصل بومة والبصرة بومة .. فخطبت الأولى بنت
الأخرى لابنها ..

فشرطت بومة البصرة أن يكون صداق ابنتها مائة ضيعة خراب ..

فقالت بومة الموصل : أما الآن فلا سبيل إلى هذا .. ولكن إذا دام

والينا - سلمه الله - علينا سنة واحدة ، فعَلْتُ لك ذلك ..

فقطن « عبد الملك إلى تفقد الولاة وإنصاف الناس بعضهم من بعض ..

ولو أن الأمر اقتصر على التشاؤم ، لهان الشر على البوم .. فهى لا تظهر

للناس نهراً ، ولاتدركها أبصارهم ليلاً لينالوا من إيدائها ما يشتهون .. ولكنهم يتحسسونها ، ويفتشون عن مكانها ، لأنهم يعتقدون أن الاكتحال بمرارة اليوم يشفى ظلمة البصر ..

وأن التكحل بِمُذَابٍ شحمها يُسَوِّى للناظر الليل بالنهار ، فيرى فى الظلام ما يراه فى النور ..

وأن البومة إذا ذُبَحَتْ أغمضت إحدى عينيها ، وظلت الأخرى مفتوحة ..
فالمفتوحة : موقظة تعين على السهر ، والمغمضة : منومة تمنع الأرق ..
فليت شعري مَنْ للبومة المظلومة !! إنها لشقية بمزعوم شؤمها .. وشقية بمظنون نفعها ..

وما قولكم فى « البزاة » وفى « الصقور » ، وهى عندكم عزيزة الأقدار ، حظية بالإجلال والإكبار ، مرموقة عند الملوك والأمراء ، موسومة بالفطنة والذكاء ، وموصوفة بالشجاعة والوفاء ، ممدوحة من الأدباء والشعراء ..
وهى مفخرة السراة والأثرياء .. يرونها خير عون فى الطراد والصيد ، ويوظفون لها المدربين والصقارين ، وينفقون العشرات والمئتين ، ويحيطونها بالتدليل والتنعيم ، ويصفونها بكل جليل وعظيم ..

ألم يقل فيها الأمير ابن المعتز :

وفتيان غَدَوْا والليلُ داج وضوء الصبح معتم الطلوع
كَأَن بُزَاتَهُمْ أمراءُ جيشٍ على أكتافهم صدأُ الدُّروع
فهل أجدى عليها هذا الإعجاب والإطراء ؟ وهل أفادت من الحظوة والاحتفاء ؟ ..

لقد حكى عن أحد الأشراف : أنه كان لديه صقّر أنزله من نفسه أكرم منزل ، وجعل له فى قلبه المحل الأول ..فخرج فى حاشيته يوماً للصيد فطرد ، وأوغل فى الطرد ، حتى أبعد عن الحاشية ، وضل مكانها فى مفازة جرداء من العشب والماء ، فأحس بالظمأ ، وراح يتلمس منابع الأمواه و مساقطها .. حتى اهتدى بعد لأيٍ إلى قطرات تنحدر من صخرة مشرفة .. فأخرج كأساً كانت معه ، وأخذ يجمع فيها هذه القطرات علّها تبل أوامه ..

وكان صقره الأثير يتبعه فى كل ذلك ، وقد جعل يحوم فوق الصخرة حتى إذا امتلأت الكأس ، وهمّ صاحبه برفعها إلى فمه .. انقض انقضاض الصاعقة ، وتكرر منه ذلك ..

فاشتد حنق الشريف لبلوغ الظمأ منه مبلغاً لم يستطع عليه صبراً .. فاستل سيفه ، وما إن انقض الصقّر عليه حتى بادره بضربة شطرته ، ولم يجدبداً أمام إلحاح العطش عليه من أن يتسلق الصخرة ليملأ الكأس من مصدر الماء ..

فلما أتاه وجد فيه حية مكومة .. فأدرك سر ما فعل الصقّر .. وندم أشد الندم على ما جرى به صقره الذى نجاه فقتله ، وشغلته شدة الحزن عن وطأة العطش .. ثم رجع إلى أهله غضبان آسفاً ..

بهذا .. ومثله قد جزيتموه .. ومنكم من يدق رأس الصقّر ، ويدهن بمخه ليحفظ به قوة شبابه ، أو يتداوى به من اقتلاع الكلف من بشرته .. فأنتم فى سبيل ما يعرض من منافعكم لا تعرفون وفاء ..

ولم أنكم أقلعتم عن الإيمان بالخرافات .. وتنزهتم عن المعتقدات .. لكأن لكم مع غيركم من خلق الله شأن الذى أنتم عليه ..

وإن من أعجب العجب .. أن العقول التي تزن الجبال ، وتفتل من الشمس الجبال - يسوغ فيها أن في الطيور طيراً يقال لها : «عنقاء مغرب» تبيض بيضاً كالجبل ، وتخطف الثيران والأفيال كما تخطف الحدأة الفأر .. ولها في كل جانب أربعة أجنحة .. فإذا طارت سمع دوى كدوى الرعد القاصف والسيل الجارف .. وأن لها وجهاً كوجه الإنسان ، وفيها مشابهة من جميع الطيور ، وتعمر ألفى سنة ..

وكانت في قديم الزمان تعيش بين الناس ، ولكنها كانت تخطف أطفالهم ، حتى سلبت يوماً عروساً بحليها .. فاشتد تأذيتهم بها وشكوها إلى نبي لهم هو «حظلة بن صفوان» عليه السلام ، فدعا عليها فأصابتها صاعقة ، فاحترقت .. ولم يتخرج بعضكم من تصديق هذه ، ولعل أحرصهم في ذلك كان «عبد الله بن أحمد الفرغاني» نزيل مصر .. فقد ذكر في تاريخه : «أن العزيز بن نزار بن المعز» صاحب مصر . اجتمع عنده من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيره ..

فمن ذلك «العنقاء» وهو طائر جاء من صعيد مصر في طول «البلشون»، لكنه أعظم جسماً منه ، وله لحية ، وعلى رأسه وقاية ، وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة وهنالك من يقول :

الجود والغول والعنقاء ثلاثة

أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

أو قولهم :

إنى رأيت المستحيل ثلاثة

الغول والعنقاء والغول الوفى

ومهما يكن من أمرها ، فقد ترك حديثها فى الناس آثاراً يتمثلون به ،
فيقولون للميئوس منه : (حلقت به عنقاء مغرب) ...

ويقول فيلسوف الشعراء « أبو العلاء المعرى » :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

وكثيراً ما كان ينشد القاضى الفاضل :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمُ فَاغْخَافُ كُلَّهْنَ أَمَان

واصطد بها العنقاء فهى حباله واقْتَدَ بها الجوزاء فهى عنان

ويا أبناء الطين والماء .. مالى أرتفع بكم إلى أجواز الفضاء ، وأحلق وإياكم

مع أطيّار السماء ؟!

ولو أنى نزلت بكم إلى أرضكم .. وحدثتكم عما فى بيوتكم من الطير

التي تعيش فى أكنافكم .. وتدرج تحت سقوفكم .. لوفرت على نفسى المشقة ..

وقربت بيننا وبينكم الشُّقَّة ..

ولن أهبط بكم طفرة من المشارف إلى الوهاد ، ولكننى مُتَّخِذٌ لَكُمْ مَنْزَلاً

وسَطاً بين السماء والأرض .. فأذكرُ الحَمَامَ الذى تحبونه ، وتأنس بكم ، وليس

شئ مما تتخذونه أنتم أشد شغفاً به ، ولا أشد صباة منه .. يستوى فى ذلك

رجالكم ونسائكم ، وشيوخكم وصبيانكم ، عَلَيَّتْكُمْ وَسَفَلَتْكُمْ .. لا تفرق فى

ذلك طبقة عن طبقة ، ما بين الحَجَّامِ إلى الملكِ الهَمَامِ ..

وهو عندكم الطائر الميمون ، والسفير المأمون .. تُحْمَلُونَ زَوَاجِلَهُ أَسْرَارَكُمْ

فى الخطر والضيق ، وتدفعون به إلى البلد المنقطع السحيق .. فيؤدى رسالته فى

مثل سرعة البرق مع التحوط والحفاظ ..

وقد بارك الحمام جدكم ونيبكم « نُوحًا » عليه السلام ، فإنه حين بقى

فى لجة الطوفان أياماً ، بعث بالغراب ليرى له فى الأرض مكاناً يرسى عليه
سفينته.. فرأى جيفة طافية على الماء .. فوق عليها ، ولم يعد إليه .. فأرسل
الحمامة ، فعادت إليه ، ومعها قطف من كرم ، وعلى رجليها طين وحمأة دليلاً
على الأرض .. فدعا لها ربُّه ، فجعل لها الطوقَ زينةً فى عنقها ، وفى ذلك يقول
«أمية بن أبى الصلت» :

وأرسلت الحمامة بعد سبع تدل على المهالك لا تهابُ
تلمس هل ترى فى الأرض عينا وغايته بها الماء العبابُ
فجاءت بعدما ركضت بقطف عليه الشأط والطين الكبابُ
فلما فرسوا الآيات صاغوا لها طوقاً كما عقد السحابُ
وكذلك .. دعا له بالبركة ، وأمنه رسول الله «محمد» صلى الله عليه
وسلم ..

وقد روى من حديث له عليه الصلاة والسلام ، أنه قال :
- « اتخذوا الحمام المقاصيص فى بيوتكم ، فإنها تلهى الجن عن
صبيانكم » ..

وشكا إليه صلى الله عليه وسلم « على بن أبى طالب » الوحشة ، فقال له
عليه الصلاة والسلام :

- « اتخذ زوجاً من حمام تؤنسك ، وتصيب من فراخها ، وتوقظك
للصلاة بتغريدها » ..

والحمامة بهذا الإكرام حريةً ، فقد أظلمت وعششت ، وباضت على باب
الغار ، حين خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة ، فصرفت عنه أنظار أعدائه ،
وأفكار طلابه ..

وقد جرى على تكريمها كثير من الناس على اختلاف الأديان والأجناس ..

فإن من يزور « فينيسيا » مثلاً .. يجد حمامها آمناً كحمام الحرم في « مكة »
يمشى بين الناس ، ويلتقط الحب من أكفهم ..
ويحكى عن الإمام « فخر الدين الرازى » أنه كان يلقى درسه بـ
« خوارزم » ، فسقطت بالقرب منه حمامة .. طردها بعض الجوارح ، فلما وقعت ،
رجع عنها ولم تقدر على الطيران لشدة ما نالها من الرعب ..
فلما قام الإمام من الدرس ، وقف عليها ، ورق لها ، وأخذها بين يديه ..
وكان « ابن عنين » حاضراً .. فأنشده على البديهة شعراً جاء فيه :

مَنْ نَبَأَ الْوَرَقَاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ حَرَمٌ وَأَنْتَ مُلْجَأٌ لِلْخَائِفِ
وَفَدَّتْ عَلَيْكَ وَقَدْ تَدَانَى حَتْفُهَا فَحَبَّوْهَا بِقَائِلِهَا الْمُسْتَأْنَفِ
وَلَوْ أَنَّهَا تَحْيَا بِمَالٍ لَانْتَشَتْ مِنْ رَاحَتِكَ بَنَائِلُ مُتَضَاعِفِ

وكان الخليفة « هرون الرشيد » يعجبه الحمام ، واللعب به .. فأهدى
إليه يوماً حماماً ، وعنده « أبوالبخترى » ..

وهب القاضى .. فروى له : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
- « لا سبق إلا فى خف ، أو حافر ، أو جناح » . فزاد : « أو جناح » ..
وهى لفظة وضعها للرشيد ..
فأعطاه وأجزل له ..
فلما خرج قال « الرشيد » :

- تالله .. لقد علمت أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم أمر بالحمام فذبح ..

فقل له : وما ذنب الحمام ؟

قال : من أجله يكذب على رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ ..

فلذلك ترك العلماء حديث البخري فلم يكتبوه ..

وللحمام في علمكم خواص ومزايا ، إن صحت كانت من أعجب

العجب .. فأنتم ترون في مجاورتها أماناً من السكتة والفالج والخدر ..

وفي الاكتحال بدمها شفاء من الجراحات العارضة للعين ..

وفي لحمها شفاء للكلبي ..

وأن زبلها إذا خلط بالخل وضمد به داء الاستسقاء شفاه ..

وإذا خلط بالدارصيني وشربه المصاب بالحصاة أذابها ..

وإذا بخرت به النفساء المعسرتيسرت ولادتها ..

وإذا شُقَّت الحمامة حية ووضِعَتْ وهي حارَّةٌ عَلَى موضع لسعة العقرب

أبرأتها ..

وَعِلْمُ ذلك عند الله وهو على كل شيء قدير ..

وانكم لتجدون في الحمام مُسْعِداً على أحزانكم ، ومُعِيناً على شوائدكم

.. ومُسَلِّياً في همومكم ..

ويجد أدبائكم لذة وروحاً في التشكى إليها ، والتحدث معها وعنهما ،

حتى ليخيل للسامع أنهم يتخاطبون مع ناطق ، ويتحدثون إلى عاقل ..

وهذه نفثة « لأبني فراس الحمداني » وهو أسير يقول :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيّا جارتاً هل تعلمين بحالي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهموم ببال
أيسكت مأسور ، وتبكي طليقة
ويضحك محزون ، ويندب سالى ؟

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالى
ويقول :

أُكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجَواً عَلَى فَنٍّ فَهَيَّجَتْ ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلهاً ولا فُجِعَتْ فَذَكَرْتَنِي أوطارى وأوطاني
طليقة من إसार الهم ناعمة .. أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبهت بى فى وَجْدِي وفى كَلْفِي هيهات ما نحن فى الحالين سِيَّانِ
ما فى حشاها ولا فى جفنها أثر من نارِ قلبي ولا من ماءِ أجفاني
ولعل من حقكم أن يكون بينكم وبين الحمام هذه الألفة والمؤانسة .. فإن
بينها وبينكم كثيراً من المشابهة والمجانسة ..

وقد لا يكون من شىء قط بين رجل وامرأة ، إلا ويرى مثله فى الذكر
والأنثى من الحمام ..

فمنها العفيفة التقية التى تحصن نفسها ولا تخون أليفها ..
ومنها اللعوب التى لا تمتنع على طالب ، كالمرأة التى لا ترد يد لأمس ..
ومنها المغاظة التى ترد على أليفها خيانة بخيانة ، إذا هو لم يحفظ عهدا ،
ورأته مع غيرها ..

ومنها الغيور التي تقاتل دونه ، وقد تقتل منافستها ..
ومنها المداعبة المطمحة التي تزيف للذكور ، وتمتتع عليهم ..
وهناك التي تتعشق الإناث ، وتجذب في ذلك من متعة الجنس ما لا يتجده في
مصاحبة الذكران ..

وليست هذه الأخلاق والعادات في إناث الحمام وحدها .. ولكنها موجودة
في ذكوره ، كما تكون في الناس بين النساء والرجال على سواء ..
ولعل الحمام ييزكم في إجادة الغزل ، وإطالة القُبْل ، والافتتان في التبرج
والإغراء والدلال إلى حدٍّ لا يجاريه فيه النساء والرجال ..
كل هذه المشابه ، وكل تلك المناقب لم تكن في يوم ما شفيعة في كف
نصالكم ومداكم عن رقاب الحمام ، ولا إخماد أرماضكم وناركم عن طبخه
وشيه .

فقد طغت شهوة بطونكم ولذة حلوقكم على كل ما يرجى من حنانكم
وعطفكم .

ولأَهْبِطُ الآن بكم إلى منازل الدجاج التي تدرج في جحراتكم ، وتعيش
بينكم وبين صغاركم .. فتعلمتم منها ، أو تعلمت منكم الجبن والْفَرَقَ ،
وتشبهتم بديكتها ، أو تشبهت بكم في الانتفاش والخيلاء والزهو والكبرياء حتى
ضربت بكم وبها الأمثال فقليل : (أزهى من ديك) ..

ولست أدري علام هذا الصلف ، وفيم هذه الخيلاء ؟!
لئن كنتم نسيتم أولكم ، أو تناسيتموه ، وجهلتم آخركم ، أو تجاهلتموه ..
وتغافلتم عن حاضركم ، أو أغفلتموه ..

فاذكروا أن الله قد بدأ خلق الإنسان من طين ، ونهاكم ربكم عن لعجب
والكبرياء فقال سبحانه :

- « لا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » ^(١) . وقال « ولا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » ^(٢) ..

وما عليكم لو عرفتم قدركم ، وحزمتم أمركم ، ولم تنسوا أنكم في الدنيا
عابرو سبيل ، وأنكم مفارقوها عما قليل ، فتحدُّوا من غُلُوِّائِكُمْ ، وتهذَّبوا من
أَخْلَاقِكُمْ ، وتسلَّكوا مع أنفُسِكُمْ ومع غيركم من خلق الله سبيلاً محموداً ..
فإن عشتُم ، حنُّوا إليكم .. وإن متُم ، ترحموا عليكم ^(٣) .

* * *



(١) سورة لقمان - جزء من الآية ١٨ ..

(٢) سورة الإسراء - الآية ٣٧ ..

(٣) مع الطير في مؤتمر - الصادر في ٢٣ / ١٢ / ١٩٦٤ ..

* من آثاره فى الشعر :

(بين آمالى و يأسى)

ألا يأيها الليل الغريق بلجة الصمتِ
لياليك التى كانت أغانيها صدَى صوتى
تعال نعيد ذكراها هنالك فى يد الموتِ

* * *

فبى يا ليلٌ مثلُ ظلامك المخبوق أوهامُ
تُفاجئُهُنَّ مثلُ نجومك الزهراء أحلامُ
وتعصفُ بى وبالأوهام والأحلام آلامُ

* * *

غريبٌ نائرٌ أحيَا على الأوهام والذكرى
أفتشُ عن مكانٍ يعشقُ الإبداعَ والسحرا
وأتظنُّ البشيرَ به .. فلم تحفلُ بى البشرى

* * *

فهذا الكونُ أحرقُ ساسَ فيه الأمرَ حمقاه
وساد على الكرام وقد تعالَى فيه أدناه
فكيف مضوا يشوهُ بعضهم للبعض نعماه؟

* * *

بأى مشيئة ملَّكُوا على الإنسان دنياهُ
وقالوا إن شرعَ الكونِ أضعفُهُ لأقواه؟
هو الله الذى ملَّكَ العبادَ وما همُ الله !

* * *

وفيمَ يتيه أشقانا ونحن المعدنُ الدنيسُ
وهذا أصلنا فى الطين والأوحال ينغمسُ
وهذا منتهاننا فى رماد القبر يحتبسُ

* * *

وهذى الريشةُ الرعناء ماذا صورت بدمى
تصاويراً مشوهةً تزيد على الشجى ألمى
وأطيافاً مبعثرةً أضاعت بينها حلمى

* * *

هى الدنيا بما وسعت تضيق بها وبى نفسى
أساقىها صباً أملى فأسقى عندها بأسى
وقد ذهلت بحانتها الرهينة للأسى كأسى

* * *

مسارحُ فتنة حمقاء فى حاناتِ شيطان
على كأس من الأشلاء تسقى من دم قان
وتنشد لحنها الخمور فى أناتِ أحزان

* * *

فهل ياليل تُرشدني إلى أحلامي النشوى
هنالك حيث ألقاها ، فألقى عندها السلوى
فتهدأ عندها روحى وتخطئ قلبى الشكوى

* * *

على أى البقاع النيرات بدربك الساحر
على هذى النجوم اللاهيات بجوها الشاعر
على أى الشعاعات التى يحيا بها الشاعر

* * *

هنالك حيث لا أَلَمٌ يحيط الكون أو وهم
هنالك حيث لا شكوى ولا شاك ولا ظلم
فهل تدرى على أى البقاع «أجده» يا نجم ؟

* * *

فيهمس لا ، ويأفل ناعياً لظلامه عقلى
ويهتف شاعر مجنون حار بخاطر ثميل
يفتش عن نبيل القصد ، هل فى الأرض من نبيل ؟

* * *

فهل من موئل بالشاطي المسحور يا بحر ؟
يضىء على يديه النور والإيمان والظهور
وتغرب عن نواحيه الأنانيات والكفر ؟

* * *

بِظِلِّ السَّاحِلِ الرَّمْلِيِّ حَيْثُ الْعَالَمُ الرَّحْبُ
وَحَيْثُ الزُّورَقُ النَّشْوَانُ وَالْأُحْلَامُ وَالْقَلْبُ
إِلَى حَيْثُ الْحَيَاةُ الشَّعْرُ وَالْإِلَهَامُ وَالْحُبُّ

* * *

إِلَى حَيْثُ الضُّفَافُ السَّاحِرَاتُ قَصَائِدُ خَضِرُ
يَغْرُدُهَا مَعَ الْفَجْرِ الرَّطِيبِ الْعَشُّ وَالطَّيْرُ
وَيَنْظُمُ بَيْتَهَا الْمَسْحُورُ فَوْقَ غُصُونِهِ الزَّهَرُ

* * *

فِيهِتَفُ لَا وَفِي عَيْنِي مِمَّا فِيهِ مَوَاجَاتُ
مِنَ الدَّمْعِ الشَّقِيَّ عَلَى شَجَى الْحَرَمَانِ تَقَاتُ
وَيَتْرَكُنِي لِتَنْعَى حُلْمِي الْمَجْرُوحِ أُنَاتُ

* * *

وَأَسْأَلُ نَفْسِي الْحَيَّرَى «بِمَا» تَسْقَى وَأُسْقَاهُ
فَوَادِي عَاشِقٍ يَأْنَفُسُ دُنْيَا غَيْرَ دُنْيَاهُ
فَهَلْ تَدْرِيْنَ أَيْنَ الْعَالَمِ الْمُنْشُودُ أَلْقَاهُ ؟

* * *



فَهْتَفَ بِي : أَجَلٌ أَدْرِ هُنَاكَ فِي يَدِ الْمَوْتِ
فَادْعُوا إِلَيْهَا اللَّيْلُ الْغَرِيقُ بُلْجَةُ الصَّمْتِ
تَعَالَ فَإِنَّ أَصْدَاءَ الْمَنَايَا كَبَلَتْ صَوْتِي
تَعَالَ فَإِنَّ آمَالِي هُنَاكَ فِي يَدِ الْمَوْتِ (*)

* * *



(*) دموع المهرج - سنة ١٩٦٨